قراءة في الفكر الأنثروبولوجي الإسلامي لابن سينا

أ. كوثر زيادة
جامعة قسنطينة

ملخص الدراسة:

برز في صرح الحضارة الإسلامية علماء أعلام عظماء، أعزَّ تاريخ الإنسانية في القديم والحديث أن يجود بمثلهم؛ فهم أعلام الحضارة، وهم صور رائعة تعكس سمو هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية، حتى التصق اسمهم بها؛ فغدا ذِكْرهم ذِكْرًا لهذه الحضارة، وغدتْ دراسة حياتهم دراسة لها أيضًا، من بينهم العالم " ابن سينا" الذي يعتبر أن المنهاج القويم يقضي أن يبدأ الباحث بإثبات وجود النفس، وتطبيقا لهذا المنهج يقدم براهين على وجود النفس، و تحليل وظائف النفس إلى: النباتية، الحيوانية والناطقة الإنسانية كما أن في الصّورة الجسميّة ثلاث مراتب ذات تدرّج تكامليّ، و رغم الانتقادات التي وجهت لآرائه، إلا أنها لم تنقص من قيمته كعالم يعتبر مرجعية ثابتة في مختلف العلوم.

الكلمات المفتاحية: ابن سينا، النفس الإنسانية، الصورة الجسمية، خلود النفس، المذهب التربوي.

مقدمة:

إن علم الإنسان الذي يدعي الغرب أنه علم غربي، لم يعرف إلا منذ قرنين من الزمان، إنما هو علم عربي إسلامي أصيل، لأن الرواد من العلماء المسلمين الرحالة الذين جابوا الأقطار المختلفة، كانوا

أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة، قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا، و من هنا تنوعت مساهمات وإبداعات العلماء، الفلاسفة و المفكرين في هذا العلم ، و من بينهم " **ابن سينا** " الذي كانت له بصمة واضحة في هذا المجال، حيث تعمق في الروح و الجسد، و خصص لموضوع النفس حوالي ثلاثين رسالة لها فصلا كاملا في الشفاء ، و في مختصرة النجاة ، و في الإشارات و التنبيهات، إضافة إلى عدة قصص رمزية في هذا الموضوع.

1- تعريف الأنثروبولوجيا:

هي علم الإنسان طبيعيا واجتماعيا و حضاريا[1]، و بالرغم من بساطة و إيجاز هذا التعريف ، إلا أنه قد يحسم لنا تعدد فروع الأنثروبولوجيا، فيحددها في ثلاث تخصصات رئيسية و هي: الأنثروبولوجيا الطبيعية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الأنثروبولوجيا الثقافية[2] ، و تشكل في نهاية الأمر منهجا يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب، و ذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان و حياته و إنتاجه الحضاري، في الماضي و الحاضر ، و من ثم يكون لديها القدرة أيضا على استقراء أنماط الحياة المستقبلية.

الأنثروبولوجيا هي: علم الإنسان، وقد نحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما Anthropos ومعناها "الإنسان"، و logos ومعناها "علم"، وعليه فإن المعنى اللفظي لاصطلاح الأنثروبولوجيا Anthropologyهو: علم الإنسان[3].

و تعرف الأنثروبولوجيا تعريفات عدة أشهرها:

1- علم الإنسان.

2- علم الإنسان وأعماله وسلوكه.

3- علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها.

4- علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي وحضاري.

5- علم الحضارات والمجتمعات البشرية[4].

وقد عرفته عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة مارغريت ميد [5] بقولها: أن الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية، والبيولوجية، والثقافية للجنس البشري عبر الأزمان، وفي مختلف المناطق، ويحلل الصفات البيولوجية والثقافية والمحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، كما يصف ويحلل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، ويبحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته.

وتُعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكاً محدوداً، وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان الأنثروبولوجيا علماً متطوراً، يدرس الإنسان وسلوكه، وأعماله[6].

إذن فعلم الأنثروبولوجيا يدرس الإنسان بكونه أحد أفراد مملكة الحيوان، ويدرس سلوك الإنسان في المجتمع، والأشكال الأولى للإنسان، والمجاميع الأولى لبني البشر، كما وتحاول الأنثروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، وفق دراسات ذاتية ومقارنة حتى داخل الأسرة الواحدة

ولابد أن نعلم أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا علمان متقاربان متشابهان، بحيث لا يمكن للباحث الفصل أو التمييز بين هذين العلمين لدرجة تقاربهما، ولمن أراد التفريق بينهما مراجعة الكتب المختصة في ذلك[7].

ومهمة الأنثروبولوجيا الأساسية هي تمكيننا من فهم أنفسنا عن طريق فهم ثقافتنا بالإضافة للثقافات الأخرى، وينصب اهتمامه على عوامل الوحدة، والاختلاف في المجتمع البشري، لكي نقدر أن نفهم بعضنا.

2- الأنثروبولوجيا من حيث التاريخ :

1- الظهور الاصطلاحي :

لقد ظهر مصطلح الأنثروبولوجيا في بريطانيا عام (1593م)، وكان المقصود به دراسة الإنسان من جميع جوانبه الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية، وظل يحمل معنى الدراسة المقارنة للجنس البشري، ويحاول أصحاب هذا العلم دراسة الإنسان وكل أعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان، أما كعلم إنسان مختص لم يعرف في الغرب إلا منذ قرنين من الزمان، وإن الأنثروبولوجيين الغربيين، ولا سيما الأوربيون منهم، يرون أن الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا ظهرت إبان عصر التنوير في أوربا، أي في عصر النهضة حيث تمت كشوفات جغرافية، وثقافية، وصناعية كثيرة داخل أوربا وخارجها.

وبذلك نعلم أن علم الأنثروبولوجيا – بما يحمل المسمى من معنى – علم حديث العهد إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة والطب و الفلك وغيرها.

وعن كلمة أنثروبولوجيا يذكر الباحث الفرنسي جان بواربيه: إنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعنى بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان[8].

أما عن فروع الأنثروبولوجيا المتعددة فلم يشهد هذا العلم قبل النصف الثاني من القرن العشرين تقسيمات، أو فروعاً متعددة، إذ كانت قبل ذلك خاصة بالباحث، والعالم المتخصص بهذا العلم، ومع انطلاقها في الستينات من القرن العشرين أخذت تتبلور حتى وصلت إلى أن تكون علمًا مستقلاً له

خصوصيته ومعالمه وأهدافه، لذا فقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها لتصبح كياناً أكاديمياً، ومهنة عند الكثير من العلماء.

2- الأنثروبولوجيا من حيث المحتوى والحقيقة:

أما من حيث المحتوى، ألا وهو دراسة الإنسان وكل ما يتعلق به، ودراسة المجتمع، والبحث في الشؤون الإنسانية، والمجتمعات البشرية القديمة قدم الإنسان، وذلك منذ وعى الإنسان ذاته وبدأ يسعى للتفاعل مع بيئته ومجتمعه وأبناء جنسه.

إن الاهتمام بالإنسان، وبكل ما يختص به هو محور الديانات، ورسالات الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، والكتب السماوية، لكن وبما أن الكثير من التحريف والتزوير قد طرأ على الرسالات والكتب السابقة، فلم يبق لنا إلا مصدر واحد (**لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**) (فصلت: 42)، ألا وهو (القرآن الكريم)، وبذلك يصبح علم الإنسان الأنثروبولوجيا علمًا إسلاميًا بامتياز، وضع أسسه القرآن الكريم، ووضحت هذه الأسس في الأحاديث الشريفة للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم امتاز به الرحالة والمستكشفون والبلدانيون المسلمون، و الذين جابوا مختلف الأصقاع من أجل البحث والتنقيب والمقارنة بين المجتمعات البشرية، وبذلك كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا.

ولقد قام هؤلاء العلماء المسلمون برحلاتهم اهتداءً واقتداءً بقوله تعالى:(**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**) (العنكبوت:)20.

وقوله تعالى: (**وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً**) (النساء:100).

لذا فقد طاف العلماء المسلمون العالم، ودرسوه جيداً، وسجلوا ودونوا كل شيء عن شعوبه، لذا فإن أسس وأهداف الأنثروبولوجيا الحديثة قد حقق أهدافها العلماء المسلمون قبل أن يظهر هذا

المصطلح، وقبل أن يصبح علمًا واختصاصًا تُساق له النظريات، وتُكتب حوله الأبحاث، وله فروعه، واختصاصاته في الكليات، والجامعات.

2- لمحة عن حياة إبن سينا:

أ- ابن سينا:

ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم مسلم فارسي، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية (أفشنة (بالقرب من بخارى (في أوزبكستان حاليا) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حاليا) و أم قروية سنة 370هـ (980م) وتوفي في مدينة همدان (في إيران حاليا (سنة 427هـ (1037م). عرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء و أبو الطب الحديث. وقد ألّف 200 كتاب في مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب، إن ابن سينا هو من أول من كتب عن الطبّ في العالم ولقد اتبع نهج أو أسلوب أبقراط و جالينوس، وأشهر أعماله كتاب الشفاء وكتاب القانون في الطب[9].

ب- مولده ونشأته:

ولد في قرية افشنا قريبة من بخاري من اب بلخي, ووالده من أتباع الباطنية، كما ذكر ابن سينا، وقد كان يحضر اجتماعاتها السرية ويعقد بعضها في بيته، ويحرص على حضور ابن سينا وأخيه لتلك الاجتماعات، وإن كان ابن سينا غير مقتنع بها، رحل إلي مدينة بخاري وهناك التحق ببلاط السلطان نوح بن منصور الساماني,الذي اسند إليه متابعة الأعمال المالية للسلطان.

في بخاري بدأ ابن سينا رحلة تلقي العلوم, حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز العاشرة ثم تلقي علوم الفقه والأدب والفلسفة والطب.

حدث أن قدم إلى بخارى عالم متخصص بعلوم الفلسفة والمنطق اسمه"أبو عبد الله النائلي" وهو من

فلاسفة الباطنية، فاستضافه والد ابن سينا، وطلب إليه أن يلقِن ابن سينا شيئاً من علومه، فما كان من هذا العالم إلا أن تفرَغ لتلميذه، وأخذ عليه دروساً من كتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف باسم "إيساغوجي". وما كان أشد إعجاب النائلي من تلميذه حين وجده يجيب عن الأسئلة المنطقية المحيِرة إجابات صائبة تكاد لا تخطر على بال معلمه. واستمر ابن سينا مع معلمه إلى أن غادر هذا المعلم بخارى.

بدأ نبوغ ابن سينا منذ صغره, إذ يحكي أنه قام وهو لم يتجاوز الثامنة عشر بعلاج السلطان نوح بن منصور الساماني, وكانت هي الفرصة الذهبية التي سنحت لابن سينا, التحاقه ببلاط السلطان ووضعت مكتبته الخاصة تحت تصرف ابن سينا.

جـ- ترحاله:

كان ابن سينا محبًا للترحال لطلب العلم، رحل إلى خوارزم وهناك مكث عشر سنوات ثم تنقل بين البلاد ثم ارتحل إلى همذان وهناك مكث تسع سنوات.

لاشك أن الرجل كان ذو شبهات دنيوية، ولكن كان يتوجه نحو هدفه بحذر وروية، فقد روي عنه تلميذه المخلص ابن أبي أصيبعة الذي صحبه 25 سنة: أن ابن سينا تناول حظه من شهوات الدنيا، وأنه أسرف في الجنس إسرافا كان من أسباب تدهور صحته، وأنه كان إذا فرغ من دروس الطب الليلية أحضر الشراب والآلات الموسيقية واستمر باللهو لساعات[10].

د – من مؤلفاته:

- كتاب الحاصل و الحصول.
- البر و الإثم في الأخلاق.
- المختصر الأوسط في المنطق.

- المبدأ و المعاد في النفس.
- الأرصاد الكلية.
- الشفاء.
- رسالة حي بن يقضان.
- النجاة.
- الإشارات و التنبيهات.
- منطق المشرقيين.
- عيون الحكمة[11].

4- الصورة الجسمية عند ابن سينا:

انتظم تحقيق ابن سينا في الصّورة الجسميّة ثلاث مراتب ذات تدرّج تكامليّ؛ فهو قد فحص أوّلا تمام الفحص فيما الصّورة الجسميّة بما هي هي، وطلب بخاصّة تفرقتها عن المقدار والتّكميم المحَدَّدِ. وبعد أن تقرّر له ذلك شرع ثانيا في البرهنة دقيق البرهنة على أنّ المادّة الجسميّة لا يمكنها البتّة أن تتعرّى عن الصّورة الجسميّة. أمّا في الأخير، فقد بيّن ابن سينا كيف أنّ الصّورة الجسميّة إنّما لها التقدّم الوجودي بالقياس إلى المادّة.

1- تحقيق ابن سينا في ماهية الصّورة الجسميّة:

إنّه معلوم أنّ الجوهر هو الموجود الّذي لا يكون في موضوع، وهو أيضا الموجود الّذي له قوام بذاته، و لا يكون قوامه بغيره، والفلاسفة قد وجدت أنّه هناك في الوجود ضربان من الجوهر: الجوهر الطّبيعي، وهذا ندرك وجوده بمجرّد الحسّ، لذلك فهو لا خلاف في حقيقته بين العوامّ والفلاسفة؛ أمّا

الضّرب الثّاني من الجوهر، فهو الجوهر المعقول، وهذا لا سبيل إلى تحقّقه إلاّ بطريق البحث العقليّ والنّظر البرهانيّ.

وقد سُئِلَ هذا السّؤال: بأيّ شيء الجوهر الجسمانيّ قد تحقّق جوهرا جسمانيّا ؟ إنّنا لو تصفّحنا الموضوعات الطّبيعيّة لوجدناها إمّا أن تكون جمادات ومعادنا وماء ونارا وهواء وترابا، وهلمّ جرّا؛ وإمّا أن تكون موجودات أخرى فيها الحياة والتغذّي والتكّاثر، لكنّها تعدم الحسّ، وهذه كلّها النّباتات؛ وإمّا أن تكون موجودات ذات حياة، وتغذّي، وتكاثر، وأيضا ذات حسّ وحركة، وهذه هي البهائم، و السّوائم، والحشرات، إلى غير ذلك؛ وإمّا أن تكون موجودات أخرى تملك كلّ الصّفات الآنفة، ولكن يُزاد لها صفة الإدراك والنّطق، وهذه هي الإنسان.

فجسم ما قد يختلف عن جسم غيره بأنواع كثيرة من الاختلاف، إلاّ أنّه هناك أبدا حقيقة واحدة تقوم بينهما، ولا يجد العقل البتّة عنها مَصْرِفًا، وهي أنّ كليهما يدرك الذّهن منهما دائما أنّهما فيهما اتّصال، وأنّه يمكن أن نفرض فيهما الأبعاد الثّلاثة، أي الطّول والعرض والعمق، وهاهنا فإنّ ابن سينا يزيد تنبيها إلى أمور، وهي أنّه هذا التّعريف المذكور لحقيقة الصّورة الجسميّة بما هي هي، إنّما ينبغي أن نميّزه واضح التّمييز عن أشياء كثيرة قد تلتبس به؛ **فأوّلا**، إنّ الجسم بما هو جسم لا يقتضي البتّة أن يكون ذلك الجسم به خطّ بالفعل، أي أنّ الجسم ليس لا يتحقّق جسما إلاّ إذا وجد فيه بالفعل خطّ؛ فالكرة مثلا هي جسم، ونحن لَنَتَعَقَّلُهَا كذلك، ومع ذلك فهي لا يوجد فيها الخطّ بالفعل، بل الخطّ لا يصير بالفعل إلاّ إذا تعيّن محورها، ومحورها لا يتعيّن إلاّ إذا تحرّكت الكرة، ولكن الكرة ليس من شرطها أن تكون جسما أن تكون متحرّكة، فإذن ليس حصول الخطّ بالفعل في الكرة من شرط جِسْمِيَّتِهَا، وإذ قلنا أنّ الجسميّة إنّما هي ذلك المعنى الواحد المشترك بين الأجسام كلّها، فيحصل أنّه ليس من حقيقة الجسميّة أن يكون الخطّ فيها موجودا بالفعل.

أمّا **الأمر الثّاني** الّذي نبّه إليه ابن سينا فهو ضرورة التّفرقة بين الجسميّة الطّبيعيّة، والجسميّة التّعاليميّة، وهو يعني بالجسميّة التّعاليميّة الجسميّة الرّياضيّة، أو الحقائق الهندسيّة كلّها، فقد قلنا أنّ الجسميّة الطّبيعيّة إنّما هي نفس معنى الاتّصال و الامتداديّة من غير اعتبار البتّة للتّناهي أو اللاّتناهي؛ أمّا الجسميّة التّعلميّة فهو معلوم أنّما هي معاني تُجَرَّدُ من الأجسام الطّبيعيّة بما هي مقادير مُقَدَّرَةٌ، وحقائق مُكَمَّمَةٌ، فالفرق بينهما إذن أنّ الأولى تُفَارِقُ أبدا معنى التّقدير والكمّ، أمّا الثّانية فإنّما قِوَامُهَا هو نفس التّقدير والتّكميم.

و**الأمر الثّالث** الّذي نبّه إليه ابن سينا فهو أنّ الصّورة الجسميّة إنّما هي معنى مُحَصَّلٌ، أي أنّه لها طبيعة ثابتة بما هي هي، غير ما يلحقها في الوجود من شكليّة معيّنة، وكمّيّة معيّنة، وإن كان هذا المعنى المحصّل لا يمكن أن يوجد إلاّ وهو مَحْفُوفٌ بتلك الشّروط الزّائدة، فالذّهن لا يوجب أن تتعيّن الجسميّة في مقدار ما، أو شكل ما حتّى تتحصّل فيه، بل قد يذهل عنها كلّ الذّهول، ومع ذلك فإنّ معنى الجسميّة، الّذي هو نفس الامتداديّة بما هي كذلك ونفس الاتّصال، لا يُغَادِرَانِ ثابتين لها؛ وليس ذلك كالعدديّة مثلا، أو المقداريّة، فهذان لا يحصلان ثابتين للذّهن إلاّ متى تَعَيَّنَا في كمّ مخصوص أو مقدار مخصوص، فالعقل لا يمكنه أن يُدْرِكَ العدد إلاّ متى أدرك عددا ما، أربعة أو خمسة، إلى غير ذلك، و لا يمكنه أيضا أن يدرك المقدار إلاّ متى أدرك شكلا ما معيّنا كالمثلّث أو غيره، فما يتعيّن به المقدار هو مُحَصِّلٌ له، أمّا في أمر الصّورة الجسميّة، فليست تحتاج البتّة هذه إلى أن تتعيّن حتّى تتحصّل طبيعتها، وإن كانت هي في الوجود لا يمكن أن تتحصّل إلاّ إذا تعيّنت[12].

2- في أنّ المادّة الجسميّة لا تتعرّى عن الصّورة الجسميّة:

لقد وضعنا في الأوّل أنّ الجوهر الجسمانيّ إنّما هو قد ثبت عند الفلاسفة على أنّه إنّما هو مؤلّف الصّورة الجسميّة، ومبدأ استعداد وقبول، أي الهيولى، إلاّ أنّ ابن سينا فبعد أن أتمّ بحثه في حقيقة الصّورة الجسميّة فقد طلب إثباته شيئا من الإثبات وجود ذلك المبدأ الثّاني الّذي تقترن به الصّورة الجسميّة خاصّ الاقتران، وطلب بيان حقيقته قبل أن يأخذ في البحث عن طبيعة علاقته بالمبدأ الصّوري.

لقد قلنا أنّ الأجسام كلّها على اختلافها إنّما تشترك في حقيقة واحدة هي هي، وهي حقيقة الصّورة الجسميّة الّتي بها كانت الأجسام أجساما. ولكن هذه الأجسام بأسرها إنّما هي أجسام مختلفة، وإذ كان لا يمكن أن يكون ما به الاتّفاق هو أصل ما به الخلاف، فلا يمكن إذن أن تكون هذه الصّورة نفسها سبب ذلك الاختلاف؛ فلا بدّ إذن من وجود مبدأ آخر غير الصّورة الجسميّة في الأجسام، وهذا السّبب هو المادّة.

وهناك برهان آخر على وجودها: من المعلوم أن الحقيقية بما هي هي لا يمكن أن تطلب نقيضها، أو ما يَنْفِيهَا، ولا يمكن أن تنطوي عليه، ولقد قلنا أنّ الصّورة الجسميّة إنّما حقيقتها فوق أنّه يمكن فرض الأبعاد الثّلاثة فيها، فإنّه فيها معنى الاتّصال؛ وحقيقة الاتّصال بما هي هي إنّما تناقض حقيقة الانفصال، فلا يمكن إذن، لا أن تنطوي عليه و لا أن تطلبه، ولكن نحن نرى أنّ الأجسام الطّبيعيّة كلّها إمّا يمكن أن تنفصل، كالأجسام الّتي نراها قد انفصلت بالفعل، وإمّا يمكن فرض الانفصال فيها، كالأجسام الّتي لم تنفصل بعد، ولكن فيها قوّة الانفصال، وإمّا يمكن توهّم الانفصال فيها، كالأجسام الفلكيّة في اعتقاد القدامى، الّتي هي لا تنفصل لا بالقوّة ولا بالفعل، ولكن الذّهن لا ينقبض في حقّها أن يتوهّمها تنفصل؛ وإذ هو بَيِّنٌ أنّه ليس يمكن أن يكون لها ذلك من جهة صورتها

الجسميّة للأسباب المذكورة، فقد تَحَصَّلَ أنّه لا بدّ أن يكون للجوهر الجسميّ مبدأ آخر يأتلف مع الصّورة الجسميّة وهذا المبدأ إنّما هو المادّة الجسميّة أو الهيولى[13].

3- في تقدّم الصّورة على المادّة في الوجود:

لقد أظهرنا فيما سلف أنّ المادّة الجسميّة لا تعرى أبدا عن الصّورة الجسميّة، وأنّ تلك لا تصبح بالفعل موجودة إلاّ لحلول لصورة فيها، ومعلوم أنّه كلّ علّة علّة لمعلول، فلها شرطان ظاهران، وهما: أن تكون العلّة متحصّلة الذّات متقوّمة بذاتها، وثانيا أن تكون متقدّمة على المعلول، وذلك إمّا بالذّات فحسب لا بالزّمن مثل تقدّم حركة اليد على حركة الخاتم الّذي في الإصبع، إذ هو بيّن أنّ الذّهن حين تلك الحركة هو يميّز أنّ حركة الخاتم إنّما هي معلولة لحركة اليد، مع أنّ كلتا الحركتين كانتا متعاصرتين، و إمّا تقدّم بالزّمن و يلزم عنه ضرورة أن يكون متقدّما بالوجود أيضا[14].

5- النفس الإنسانية عند ابن سينا:

تأثر برأي أرسطو في ماهية النفس، فقال أنها صورة البدن، و لكنه لم يكتف بذلك لعلمه أن الصورة لا تنفك عن المادة، فهو يرى أن النفس حقيقة مغايرة للجسم، و متميزة عنه كل التميز، فلا يصح أن نقول أن النفس صورة الجسم، لأن هذا القول يجعل مصير النفس تابعا لمصير البدن، لذلك يقول: " ليس وجود النفس في الجسم كوجود العرض في الموضوع[15]"، فالنفس جوهر يدرك المعقولات، و لهذا لا يمكن أن تكون جسما إلا أمرا قائما بجسم، فالصورة المعقولة إذا و جدت في النفس لم تكن ذات وضع، و بالتالي فإن الجوهر هو محل المعقولات، و هو جوهر روحاني غير موصوف بصفات الإنسان.

و يرى كذلك أن النفس تدرك الكليات، و تدرك ذاتها بغير آلة جسمانية، أما الحس فإنه شيئا خارجا، و لا يحس ذاته، و لا آلته و إحساسه، و كذلك لا يتخيل ذاته، و لا فعله و لا آلته [16].

6- براهين وجود النفس عند ابن سينا:

لقد شرح عبد الكريم عثمان البراهين التي استخرجها من آراء ابن سينا على وجود النفس، وأرجعها إلى أربعة براهين[17].

أ- البرهان الطبيعي أو السيكولوجي: إن الآثار النفسية التي تبدو في سلوك الإنسان هي نتيجة لوجود الحركة و الإدراك عنده، فحالات الحزن، الفرح، النوم، العمل و غيرها، هي نتيجة لدوافع نفسية تتعلق بالحاجات و الغرائز و الآمال التي تعد المحركات الأساسية للسلوك.

ب- برهان الاستمرار: يعد هذا البرهان أقرب البراهين إلى علم النفس الحديث، لأن ابن سينا يرسم للقارئ صورة واضحة عن الشخصية او الأنا على الرغم من اختلاف أحوال الإنسان و الظروف التي يمر بها، و قد عبر عن هذا الرأي في رسالته " رسالة في معرفة قوى النفس الناطقة"، فقال: " تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك، هو الذي كان موجودا في جميع عمرك، حتى أنك تتذكر كثيرا مما جرى من حولك، فأنت إذن ثابت، مستمر لا شك في ذلك[18]".

جـ- برهان الأنا أو وحدة قوى النفس: يعبر عن هذه الفكرة في عدة أمكنة من كتبه، و فيما يلي بيان ذلك: قال في كتاب "النجاة": " أن النفس ذات واحدة، لها قوى كثيرة، و لو كانت قوى النفس لا تجتمع عند ذات واحدة، بل كان للحس مبدأ على حدة، و للغضب مبدأ على حدة، و لكل واحدة من الأخرى مبدأ على حدة، لكانت القوة التي بها نحس[19]".

بمعنى أن الإنسان يعلم أن نفسه واحدة، و إن تعددت قواها، و أن جميع هذه القوى تستلزم أصلا واحدا تصدر عنه و هو الأنا.

د- برهان الرجل المعلق في الفضاء: يقوم هذا البرهان على الفكرة التالية: أن الإنسان لو جرد نفسه من كل ما يتصل بها من المدركات الخارجية، و رجع إلى ذاته الحقيقية، فإنه يدرك بالحدس أنه ليس

جسما، و لا شيئا حالا في جسم، و إنما هو ذات روحانية تدرك ذاتها بنفسها، و نحن نجد المعنى المذكور في قول ابن سينا: " ارجع إلى نفسك و تأمل "، و يقول في "الشفاء[20]": " يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة"[21].

7- تحليل وظائف النفس عند ابن سينا:

اهتم ابن سينا بتحليل وظائف النفس المختلفة تحليلا عميقا قسمها إلى ثلاث نفوس هي[22]:

1- النفس النباتية: و هي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد و يتغذى، و لذلك انقسمت النفس إلى ثلاث قوى هي:

أ- النفس الغاذية: و هي التي تحيل جسما آخر إلى مشاركة الجسم الذي هي فيه فتلصقه به بدل ما يتحلل عنه.

ب- القوة المنمية: و هي التي تضيف إلى الجسم زيادة في أقطار طولا و عرضا و عمقا بالمقدار الواجب لتبلغ به كماله في النشوء .

جـ- القوة المولدة: هي التي تأخذ من الجسم الذي هي فيه جزء هو شبيه له بالقوة، فتفعل فيه بامتداد أجسام أخرى تشبه به من التخلق و التخريج ما يصير شبيها به بالفعل.

2- النفس الحيوانية: هي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما، يدرك الجزيآت و يتحرك بالإرادة، و لها قوتان: قوة محركة، و قوة مدركة.

أ- القوة المحركة: و تنقسم إلى قسمين:

-قوة باعثة: هي القوة النزوعية و الشوقية، و هي القوة التي إذا ارتسم في التخيل صورة مطلوبة أو الهروب منها حملت تلك على التحريك و لها شعبتان:

1- **شعبة شهوانية:** و هي تبعث على طلب اللذة.

2- شعبة تنمي قوة غضبية: و هي تبعث على طلب الغلبة.

-قوة محركة: و هي تنبعث من الأعصاب و العضلات ما ما شأنها أن تشنج العضلات، فتجذب الأوتار و الرباطات إلى جهة المبدأ أو ترخيها أو تمدها طولا، فتصير الأوتار و الرباطات إلى خلاف جهة المبدأ[23].

3- النفس الناطقة الإنسانية: و تنقسم إلى عالمة و عاملة، و كل قوة من هاتين القوتين تسمى عقلا.

أ-القوة العاملة: أو العقل العملي: و هي المحرك لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالرؤية على مقتضى آراء تخصها، إصلاحية، و لها اعتبار إلى القوة الحيوانية النزوعية و اعتبار بالقياس إلى المتخيلة و المتوهمة، و اعتبار بالقياس إلى نفسها.

ب- القوة العالمة: و هي قوة نظرية من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة، فإن كانت مجردة بذاتها، و إن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها علالق المادة أي شئ[24].

8- أثر الثقافة الإسلامية في أفكار ابن سينا:

1- خلود النفس: أما خلود النفس الإنسانية فيثبته ابن سينا ويقول : إذا كانت النفس تحدث بحدوث البدن الصالح لها فلا تفسد بفساده، والنفس خالدة لأنها ذات روحانية غير مركبة، وكونها صورة للجسد لا يعني أنها تفسد بفساد الجسد، فالنفس جوهر بسيط لذلك فمن غير الممكن أن تشتمل على أمرين متناقضين هما الوجود و الفناء، ولما كان الوجود صفة ذاتية للنفس فمن غير الممكن عقلاً أن يكون الفناء صفة ذاتية لها أيضا لما كانت بسيطة و لأصبحت مركبة[25].

ولقد حاول ابن سينا البرهنة على خلود النفس، ومن أدلته على ذلك أن علاقة النفس بالبدن ليست علاقة سببية، وبالتالي فإن العلاقة بينهما ليست ضرورية، وإذا كان الأمر كذلك، فإن فناء البدن

لن يؤدي إلى فناء النفس. وبما أن النفس قائمة بذاتها ومستقلة عن البدن، فإنه لابد أن تكون خالدة. والدليل الثاني هو أن النفس بسيطة والبدن مركب، والبسيط لا يفنى بينما ينحل الجسم المركب ويفنى[26].

2- المذهب التربوي:

1- لم تقتصر التربية السيناوية على مرحلة واحدة وهي دخول الطفل المدرسة، بل شملت تربية الطفل منذ لحظة ولادته حتى زواجه و انخراطه في الحياة الاجتماعية.

2- لم ترتكز التربية السيناوية على جانب واحد أو بعض جوانب الشخصية الإنسانية لتهمل الجوانب الأخرى، بل اهتمت بوحدة الشخصية الإنسانية وتكاملها العقلي والجسدي والانفعالي.

3- تأثرت التربية السيناوية بتعاليم الدين الإسلامي، وبخاصة القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذلك بالفلسفة اليونانية.

4- حرص ابن سينا على تدعيم آرائه بمبررات نفسانية، وقد نجح نجاحاً بعيداً في هذا الميدان، مما يحمل على الاعتقاد أن ذلك عائد إلى حد كبير إلى امتهانه مهنة الطب[27].

مرحلة الطفولة الأولى :ذكرنا سابقاً أن التربية السيناوية تميزت بأنها تناولت حياة الإنسان منذ لحظة ولادته فما هي المبادئ والأسس التي خص بها هذه الفترة؟

أكد ابن سينا على ضرورة الاسم الحسن للمولود، فهو حق من حقوقه، وهو يفرض على الطفل دون اختيار منه، فيجب أن يكون هذا الاسم مقبولاً اجتماعياً وأخلاقيا، واهتمام ابن سينا بهذه الناحية جاء من كونه أدرك من خلال عمله كطبيب، الأثر الذي يحدثه الاسم السيئ على صاحبه، فهذا الاسم ليس مؤقتاً يتخلص منه الإنسان بعد فترة من الزمن، بل هو ملازم للإنسان طوال حياته، فإذا كان هذا الاسم مما يبعث على السخرية والتشاؤم، فإنه سينعكس على شخصية الطفل طوال حياته فيعيش في حالة لا تخلو من الاضطرابات النفسية التي لا يحمد عقباها[28] .

وهو ما أكد عليه الدين الإسلامي فقد حث رسول الله(صلى الله عليه و سلم) على الاسم الحسن للمولود، حيث ورد في السيرة أن رسول الله(صلى الله عليه و سلم) قد غيّر الكثير من الأسماء إلى الأحسن.

ب– الرضاعة :

يقول ابن سينا في كتاب القانون: يجب أن يرضع الطفل ما أمكن من لبن أمه، فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم[29].

بهذه العبارة التي أوصى بها ابن سينا بالرضاعة الطبيعية وضرورتها، نجده قد سبق الدعوات العالمية التي تدعو وتحث على الإرضاع الطبيعي للطفل وتحذر من أخطار الإرضاع الصناعي، وفي حال تعذر الرضاعة من الأم فلا مانع من اللجوء إلى مرضعة يشترط فيها الصحة الجسدية والخلقية.

وهذا ما أكده القرآن الكريم حيث وردت عدة آيات تبين وجوب إرضاع الطفل عامين كاملين.

9- أهم الانتقادات الموجهة لأفكار ابن سينا:

يعتبر فكر ابن سينا امتداد لفكر لفارابي، و قد أخذ عن الفارابي فلسفته الطبيعية وفلسفته الإلهية أي تصوره للموجودات وتصوره للوجود، وأخذ منه على الأخص نظرية الصدور وطوّر نظرية النفس وهو أكثر ما عني به.

كان يقول بنفس المبادئ التي نادى بها الفارابي من قبله، بأن العالم قديم أزلي و غير مخلوق، و أن الله يعلم الكليات لا الجزئيات، و نفى أن الأجسام تقوم مع الأرواح في يوم القيامة، و قد كفره نتيجة أفكاره هذه الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال"، و أكد نفس المعلومات ابن كثير في البداية و النهاية (43/12)، وأكد ابن عماد في "شذرات الذهب" (237/3) أن كتابه "الشفاء "اشتمل على فلسفة لا ينشرح لها قلب متدين، أما شيخ الإسلام ابن تيمية أكد أنه كان من الإسماعيلية الباطنية الذين ليسوا من المسلمين أو اليهود أو النصارى.

وقال فيه ابن القيمُ في كافيته:

وقضى بأنَّ الله يجعل خلقه * عدماً ويقلبه وجوداً ثاني

العرش والكرسي والأرواح و * الأملاكُ والأفلاكُ والقمرانِ

والأرض والبحر المحيط وسائر * الأكوانِ من عرض ومن جثمانِ

كلٌّ سيفنيه الفناءُ المحض لا * يبقى له أثر كظلٍّ فانِ

ويعيد ذا المعدوم أيضاً ثانياً * محض الوجود إعادة بزمانِ

هذا المعاد وذلك المبدأ لدى * جَهم وقد نسبوه للقرآنِ

هذا الذي قاد ابن سينا و الألى * قالوا مقالتَهُ إلى الكفرانِ

لاشك أن الرجل كان ذو شبهات دنيوية، ولكن كان يتوجه نحو هدفه بحذر وروية، فقد روي عنه

تلميذه المخلص ابن أبي أصيبعة الذي صحبه 25 سنة: أن ابن سينا تناول حظه من شهوات الدنيا، وأنه أسرف في الجنس إسرافا كان من أسباب تدهور صحته، وأنه كان إذا فرغ من دروس الطب الليلية أحضر الشراب والآلات الموسيقية واستمر باللهو لساعات[30].

و في الأخير يمكننا القول أن ابن سينا بين نظرة العالم الطبيعي المدقق، ورؤية الفيلسوف الشاملة والعميقة، فكان منهجه العلمي يستند إلى دعائم فلسفية تشترك في تكوينه كلٌّ من النظرة العقلية المنطقية، والرؤية الحسية التجريبية؛ تشكل عند جمعهما وتأليفهما معلمَين رئيسيَين لمنهجه وهما المعلم الاستقرائي التجريبي، والمعلم الاستنباطي العقلي ، و بالتالي فهو من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق.

التهميش:

1- شاكر سليم: قاموس الأنثربولوجيا (عربي/ انجليزي)، جامعة الكويت، 1981، ص 56.

2- د.حسين فهيم: قصة الأنثربولوجيا، سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، يناير، 1978، ص 17.

3- حسن أبو زيد: مدخل إلى الأنثربولوجيا، المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة و نقدها مادة الأنثربولوجيا، ص 13-14.

4- شاكر مصطفى سليم: المدخل إلى علم الأنثربولوجيا، مطبعة المعاني، 1975، ص 7.

5- الشيخ ليت عبد الحسين العتابي: الأنثربولوجيا الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، العدد148، 2013، ص137.

6- شاكر سليم: مرجع سبق ذكره، ص 56.

7- الشيخ ليت عبد الحسين العتابي: مرجع سبق ذكره، ص 138.

8- د.حسين فهمي: مرجع سبق ذكره، ص 13،19.

9 - ابن سينا: مقالة موجودة على الرابط: http://www.al-daa.com/vb/t3178.html#.VMwHDywoPK8، تاريخ زيارة الموقع: 2015/01/28، على الساعة: 21:15.

10- ابن يسنا: المرجع السابق.

11- أ.د محمد خير حسن درسوقي، حسين عثمان: ابن سينا و النفس البشرية، مكتبة الدراسات النفسية، الطبعة الأولى، 1402هـ- 1982 هـ، ص 80،81.

12- لطفي خير الله: في مبحث ابن سينا في الصورة الجسمية، مقالة موجودة على الرابط:

www.muslimphilosophy.com/**sina**/.../corporal-form.d... ، تاريخ زيارة الموقع: 2015/01/26، على الساعة: 23:30.

13- المرجع السابق.

14- المرجع السابق.

15- ابن سينا: الشفاء، نشر وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1381هـ، ص 29.

16- المرجع السابق: ص 293.

17- عبد الكريم عثمان: الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة، 1382هـ- 1963م ، ص 68.

18- أ.د محمد خير حسن درسوقي، حسين عثمان: مرجع سبق ذكره، ص 120.

19- المرجع نفسه: ص 121.

20- ابن سينا: الإشارات و التنبيهات: ص 121، نسخة محملة من الموقع الإلكتروني:-www.al mostafa.com، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/01، على الساعة: 13:30.

21- ابن سينا: الشفاء، مرجع سبق ذكره، ص 281.

22- ابن سينا: النجاة، ص 258،268. نسخة محملة من الموقع الإلكتروني: www.al-mostafa.com، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/01، على الساعة: 15:00 .

23- أ.د محمد خير حسن درسوقي، حسين عثمان: مرجع سبق ذكره، ص 123.

24- المرجع السابق: ص 126.

25- كنان سقيرق: النفس و خلودها عند ابن سينا: مقالة موجودة على الرابط:
:http://www.nooreladab.com/vb/showpost.php?p=19896&postcount=3
تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/02، على الساعة:11:45.

26- أحمد أغبال: تطور مفهوم النفس من المعلم الأول إلى الشيخ الرئيس: مقالة موجودة على الرابط: http://sophia.over-blog.com/article-3820852.html، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/02، على الساعة: 13:00.

27- أنطوان الخوري: أعلام التربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص 124.

28- عبد الأمير شمس الدين: المذهب التربوي عند ابن سينا من خلال فلسفته العلمية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص 165.

29- ابن سينا: القانون في الطب، منشورات محمد على بيوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م، ص 150.

30- فارس حسن الساعدي: مجريات ابن سينا الروحانية، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأولى، 2005، ص 195.

- قائمة المراجع:

1- ابن سينا: الشفاء، نشر وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1381هـ.

2- ابن سينا: القانون في الطب، منشورات محمد على بيوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م.

3- ابن سينا: الإشارات و التنبيهات: ، نسخة من الكتاب محملة من الموقع الإلكتروني:-www.al-mostafa.com، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/01، على الساعة: 13:30.

4- ابن سينا: النجاة، نسخة محملة من الموقع الإلكتروني: www.al-mostafa.com، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/01، على الساعة: 15:00 .

5- أنطوان الخوري: أعلام التربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.

6- الشيخ ليت عبد الحسين العتابي: الأنثربولوجيا الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 148،2013.

7- أحمد أغبال: تطور مفهوم النفس من المعلم الأول إلى الشيخ الرئيس: مقالة موجودة على الرابط: http://sophia.over-blog.com/article-3820852.html، تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/02، على الساعة: 13:00.

8- ابن سينا: مقالة موجودة على الرابط: http://www.al-daa.com/vb/t3178.html#.VMwHDywoPK8، تاريخ زيارة الموقع: 2015/01/28، على الساعة: 21:15.

9- حسن أبو زيد: مدخل إلى الأنثربولوجيا، المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة و نقدها مادة الأنثربولوجيا.

10- د.حسين فهيم: قصة الأنثربولوجيا، سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، يناير، 1978.

11- شاكر سليم: قاموس الأنثربولوجيا (عربي/ انجليزي)، جامعة الكويت، 1981.

12- شاكر مصطفى سليم: المدخل إلى علم الأنثربولوجيا، مطبعة المعاني، 1975.

13- عبد الأمير شمس الدين: المذهب التربوي عند ابن سينا من خلال فلسفته العلمية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، الطبعة الأولى، 1988.

14- فارس حسن الساعدي: مجريات ابن سينا الروحانية، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأولى، 2005.

15- عبد الكريم عثمان: الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة، 1382هـ- 1963م.

16- كنان سقيرق: النفس و خلودها عند ابن سينا: مقالة موجودة على الرابط:
:http://www.nooreladab.com/vb/showpost.php?p=19896&postcount=3
تاريخ زيارة الموقع: 2015/02/02، على الساعة:11:45.

17- لطفي خير الله: في مبحث ابن سينا في الصورة الجسمية، مقالة موجودة على الرابط:
www.muslimphilosophy.com/**sina**/.../corporal-form.d... ، تاريخ زيارة الموقع: 2015/01/26، على الساعة: 23:30.

18- محمد خير حسن درسوقي، حسين عثمان: ابن سينا و النفس البشرية، مكتبة الدراسات النفسية، الطبعة الأولى، 1402هـ- 1982 هـ.